النبض.. أساس تمظهر الحياة

في إحدى ليالي الصيف الحارّة التي أمضيتها في منتجع سياحي مع الأصدقاء، نزلت في ساعة متأخرة إلى حوض السباحة. سبحت بهدوء، ثم استلقيت في الماء على ظهري دونما حراك، آخذاً أنفاساً هادئة وعميقة. غمرت المياه أذنيَ فيما سرحت أفكاري في البدر وفي النجوم المتلألئة...

مغامرة إيزوتيريكية في خفايا العلاقة القائمة بين الإنسان والألحان

بين الموسيقى والباطن

كان لتلك «التركيبة» تأثير مميز على صعيد التفاعل الداخلي، إذ تلمّست وقع الصمت على الباطن، لاسيما في البرهة التي تفصل الشهيق عن الزفير... حيث تتوقف كل حركة وينقطع كل صوت خارجي أو تشويش، فيتم اتصالٌ من نوع آخر... إتصال باطني محض، يفتح الآفاق باتجاه عمقي داخلي...

أشعرُ بنعومة الهواء تلامس وجهي، وأشعر بحرارة غير اعتيادية وسط الجبين... جلبَت لي من الذاكرة، في ومضة، عبارة كنتُ قد قرأتها في كتاب الإيزوتيريك «رحلة في رحاب الحقيقة» بقلم د. جوزيف مجدلاني، تقول:

«في الصمت تسمعون كل الأصوات ما عدا صوتكم... لأن في الصمت تسكن الشفاه لتتكلم الحياة...»

أرخيت النظر نحو السماء، متجاهلاً التركيز على نجمة معينة أو على البدر... وموجهاً الفكر إلى الداخل، هادفاً إلى سبر أغوار الصمت!

مرّت دقائق على هذه الحال، ثم بدأت تتراءى لي ذريرات بيضاء تتطاير في الأجواء، تشبه حبوب الثلج النفناف (النَدف) لكن ذات حجم أصغر بعشرات الأضعاف... أردت إدراك ماهيتها موجهاً كل وعيي نحوها. تجلّت الصورة إذ تكثّفت الذريرات حول جسدي، ثم أحسست بانسيابها في كياني... لاسيما عبر الجبين. فهل هذه هي طاقة الحياة المعروفة قديماً بالبرانا (Prana)؟!

إثر مراقبة حركتها وتفاعلي معها مشاهدةً وإحساساً، شعرت بأنها تنقلني الى خفايا عالم الصمت! وقبل أن أغور فيها وأحتفظ بذكرى ما يمرّ على شاشة وعيي لأكتسب الخبرة، عملت على تأكدي من انني لا أحلم أو أتخيل. حرّكت يديّ وقدميّ وشعرت بالماء والهواء يلامسانها، أغمضت عينيّ وفتحتهما ثانية، ثم أخذت نفساً عميقاً وحبسته منقطعاً عن كل حركة خارجية...

أحسّ بالبرانا تنفذ إلى كياني عابرة كثافة الجسد المادي... في حركتها تلك تتفاعل مع ذبذبات الباطن وتُحدثُ أنغاماً لا تُسمَعُ إلا في الصمت. فالصمت لغة الطاقة الكونية الأعظم تلك! لذا ما من وجود للصمت بمعنى الغياب الكلي للأصوات، بل في الصمت أصوات كثيرة لا تسمع إلا عن طريق الباطن... وفي تلك اللحظة التي عشت فيها حالة باطنية، سمعت الصمت يتحدث عن ذاته:

«في الصمت يحصل التمعن الهادف والتفكير،
في الصمت يرى الإنسان ما يحيطه وما يتخلله من أثير،
وفي الصمت أيضاً يسمع الإنسان إرشادات الباطن وصوت الضمير...
في الصمت يسبر الإنسان أغواره لتتكشف له خبايا نفسه وما تحويه من سلبيات وإيجابيات. فوحده

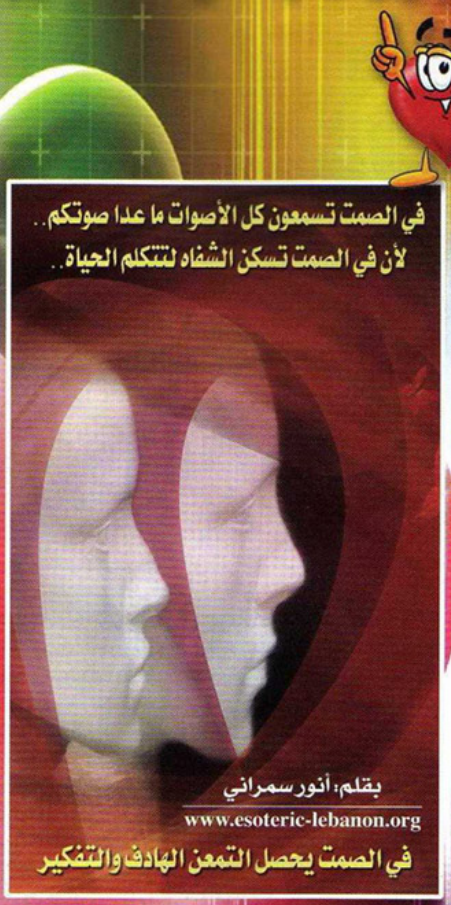

الارتقاء إثر تطبيق المبادىء الإنسانية عملياً، يؤدي بالسائر إلى سماع صوت الصمت، لأنه صوت المحبة، وصوت الروح في الأعماق!

السكوت لا يعني صمتاً تجاه الضجيج أو تجاه كلام الآخرين وحسب، بل أيضاً تجاه منغصات الحياة وظروفها الصعبة القاسية. ذلك لأن الصمت هو صمت النفس ككل، لتفسح المجال أمام الفكر ليتصرف بوعي في الهدوء الداخلي الذي يزيد من مقدرته الواعية على التفكير.

إنّ ممارسة فنّ الإصغاء تطبيقاً عملياً، أي بحكمة الوعي والانتباه والتفكير في سبب الحديث وغايته، تساعد المرء على تطوير حسّ التمييز، وتفتح ميزة الصبر، كما وتقرّبه من السكينة التي يُسمع إثرها، وفي صمتها، صوت الذات العليا... صوت الحقيقة في الإنسان!

إن المستلزمات الأساسية للوصول إلى أعماق الصمت تبدأ في اكتساب السلام الداخلي، والعمل على تفعيل المحبة في التصرفات، وشحذ الشفافية في الفكر. ذلك لأن صوت المعلم الداخلي لا يُسمع إلا عند النجاح في تحقيق هذه الثلاثية، فصوت المعلم الداخلي الذي يُسمع في الصمت هو الحكمة التي تنساب إلى مسامعك عابرة الوجدان... ناقلة إليك الحقيقة ببلاغة القول، في صوت رخيم، هو عينه صوت الضمير!

إن البرهة الزمنية التي تسبق تلاوة اللفظة الصوتية (مانترا)، كما تلك التي تلي تلاوتها، تحمل طاقة إلى الكيان عن طريق الصمت الذي يحدث إثرها...»

انقطعت تنفساتي التي كنت قد زفرتها بهدوء تام لاشعورياً مني، وانقطع معها صوت الصمت فجأة... فراغ رئتي من الهواء أنزلني تحت الماء. حركاتي الجسدية التي قمت بها للعوم من جديد بانت لي كأنها جبال تتزحزح من مكانها... وأصوات حركة المياه والهواء التي سمعتها أولاً عندما تنفست من جديد بدت وكأنها عاصفة رعدية هوجاء...

قبل النوم، تمنيت لو كنتُ قد سمعت أكثر من الصمت مع هذا الاختبار، إلا أنّ صوتاً داخلياً، كأنه صدى الصمت الذي يصدح أبداً في الباطن، أجابني: «لا يهم كم سمعت، بل مدى أهميته! فالصمت يتكلم لغة بليغة تناجي الباطن فيك وتحثّه على التطبيق... حتى لا يأتي اليوم الذي تجيب نفسك فيه عن أمنيتك قائلاً: «يا ليتني طبقت أكثر مما سمعت من إرشادات الصمت في تلك التجربة».

واستسلمت لنوم عميق...

وفي الصباح، استفقت على مجموعة أفكار حول النبض، كأنها راودتني مع أحلام تلك الليلة، التي كثرت ربما نتيجة خبرتي مع الصمت أو ربما لأنني عملت على تدوين ما مرّ بي قبل أن أنام... فالتركيز الذي قمت به لاسترجاع الأفكار بتفاصيلها قد يكون الدافع الذي حملني إلى حيث الحلم يحاكي الرؤيا... أخذت ورقة وكتبت عليها جملة تواردت إلى مسامعي أثناء الحلم:

النبض صوت الذبذبة
والذبذبة روح الموسيقى،
والموسيقى صوت الحياة،
أما الحياة، فهي المسرح الذي ينشد عليه الإنسان سمفونية الوعي...

ثم حاولت العودة إلى حالة التركيز بهدف استرجاع ما تحويه الذاكرة مما اطلعت عليه في علوم الإيزوتيريك عن النبض، لكن سرعان ما تنبهت إلى أن الوقت لم يكن ملائماً لذلك، لقد استفاق الجميع وبدأ النهار مرفقاً بالضجيج، وزوجتي تدعوني لتناول الفطور. إلا أن حيزاً من تفكيري بقي يحوم حول موضوع النبض بغية الغوص في النواحي الباطنية منه.

بعد عدة أيام عدت خلالها إلى الملاحظات التي دوّنتها ولخّصت بعض ما استنتجتُه بالآتي:

- النبض رديف الحركة، هو أول تعبير عن مطلق وجود، بمعنى أنه انطلق مزامنة مع الحركة- الفعل...

- النبض هو أساس تمظهر الحياة، فلا مجال للوعي من دون وجود نبض يُحيي...

- النبض أصل الموسيقى، وهو أيضاً محور ترددّاتها والوحدة التي ستؤول اليها... هو لها كما القلب للجسد، يرسل الدم إلى جميع أعضائه، وكل عضو يعمل بطريقة خاصة به حاملاً نبض القلب في صميمه.

- النبض يتوسط السباعية التي حملت الموسيقى من اللابداية الأولى وصولاً إلى عالم المادة، وهي: (سكينة - سكون - صمت - نبض - نغم - لحن - صوت)

- النبض أداة للوعي، فأن تعي عضواً ما في جسدك يعني أنك تبدأ بوعي النبض فيه. والنبض أيضاً هو المؤشر الذي يحدد ما إذا كانت الحياة تسري في الجسد.

- النبض الداخلي في الإنسان هو صدى صوت الضمير الذي يدعو المرء لتحقيق التناغم الداخلي على صعيد الكيان الباطني. ذلك لأن التناغم الداخلي هو حالة انسجام كلي، تملأ الكيان ككل... فلا يبقى جزء بعيد عن الآخر، أو يعمل بطريقة مناقضة لعمل الأجزاء الأخرى! وهذه هي الطريق الأقصر إلى الحكمة في التطبيق العملي الحياتي، حيث يكمن الهدف في تحقيق الانسجام بين الجسد والمشاعر والفكر...

بذلك، دوّنتُ هذه الخواطر، وأضفتها إلى خلاصة مغامرتي الإيزوتيريكية في خفايا العلاقة القائمة بين الإنسان والألحان... لأقدّمها ضمن إحدى فصول كتاب بعنوان «بين الموسيقى والباطن»...

كان الهدف من كتاب «بين الموسيقى والباطن...» إلقاء نظرة علمية- باطنية- حياتية شاملة تغور في أهمية الموسيقى في حياة الإنسان... وكشف خفايا العلاقة التي تربط الإنسان (ذبذبيّاً) بالألحان، مع توضيح النظام السباعي الذي قام كل شيء على أساسه: «فالنوتات الموسيقية الأساسية سبع، والألوان الأساسية التي تشكل طيف النور سبعة، كما أنّ أجسام الإنسان الباطنية سبعة، والشاكرات سبع... كذلك الكواكب الرئيسة سبعة... إلى ما هنالك... وكلّها مترابط بعضها ببعض ضمن وحدة تشير إلى إبداع الخلق في المخلوق!».

فضلاً عن ان الكتاب يكشف أيضاً علاقة حالات التأمل بالموسيقى، ويربطها بالمحور الأساس، الإنسان، شارحاً دورها الفاعل في كيانه الباطني في التالي:

«إنّ التأمل هو الذي يوصل إلى روح الموسيقى؛ إذ عبر التأمل، لا يستشف الإنسان العلاقة التي تتخطى بُعد المادة لتلامس الباطن فيه فحسب، بل هو يخترق أعماق وعيه ليستمع عبر حواسه الباطنية إلى الموسيقى الصادحة دوماً، التي تُحدثها ذبذباتها التي لا تكف عن الحركة... فالموسيقى أكثر من غذاء لأجهزة الوعي (الأجسام الباطنية) في الإنسان، بل هي أحد مكوناتها الأساسية التي تعبّر عن وجودها في ديمومة حركتها وتفاعلاتها اللامتناهية...»

وأختم بما كتبه الدكتور وليد غلمية (المؤلف وفائد الأركسترا ورئيس الكونسرفاتوار الوطني في لبنان) في تقديمه للكتاب: «الفن بمفهومي هو صناعة والصناعة هي حركة والحركة هي غوص وبحث وتنقيب وتفتيش وتعمق الخ... وان جميع الموسيقيين المبدعين الكبار هم ايزوتيريكيون...».